فضل علم السلف على الخلف

للامام الأصولى الحافظ الفقيه أبى الفرج زين الدين عبد الرحمن
ابن احمد الشهير بابن رجب البغدادى الحنبلى
المتوفى سنة ٧٩٥ هـ

طبع بأمر معتمد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاته

(عني بتصحيحه والتعليق عليه للمرة الثانية سنة ١٣٤٧ هـ)

ادارة الطباعة المنيرية
لصاحبها ومديرها محمد منير عبده اغا الدمشقي
(من علماء الازهر الشريف)

مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين * ونحن نحمد الله تعالى على أن وفقنا لاحياء آثار السلف الصالح بنشر كتب العلم النافع الذي عليه مدار سعادة الدنيا والدين باذلي الجهد في سبيل تتبع الآثار ونفائس الأسفار خدمة للجامعة الاسلامية وحرصا على تسهيل المنافع لأخواننا المسلمين فان الخير كل الخير باتباع آثار السلف الصالح والاهتداء بهديهم النير في كل ما يؤثر عنهم من قول وعمل غير مبالين بمن يضعوا في طريق سعينا واهتمامنا العقبات والموانع ليصدونا عن سبيل الخدمة العامة والنصح الواجب للمسلم على أخيه المسلم لتكون لهم الكبرياء والسيطرة على عالم التجارة الحرة المشروعة لكل من أراد الاتجار واننا نعذرهم لا نعذلهم فانهم جهال ليسوا على شيء من العلم حتى يستنيروا بنوره ويهتدوا بهديه يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ويضنون على المسلمين بنشر ما ينفعهم ويفيدهم في دينهم ودنياهم وأخراهم فكلما بلغهم أننا تصدينا لطبع كتاب نافع كما هو دأبنا وعملنا أخذوا يقطعون علينا الطريق ويسدون في وجوهنا أبواب

التقدم وليس لعملهم هذا شبيه الا ماقال الله تعالى حكاية عن أمثالهم (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقا بين المؤمنين وارصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون) على ان الامة الاسلاميه ولله الحمد لا تعدم رجالا يرون الحق فيتبعونه ويميزون بين الغث والسمين والتافة والثمين ومطبوعاتنا التى ظهرت الى هذا اليوم واقبل أهل العقل عليها أكبر شاهد على حسن وقع ذلك بين المسلمين مع ما يضاف اليه من التساهل فى الاثمان وبذل الوسع فى التأنق بالطبع وجودة الوضع وهذا الكتاب انموذج من نماذج تلك المطبوعات وقد كان الحصول عليه بعد البحث والتنقيب فى مكتبة حضرة الفاضل المدقق والمتتبع المتقن (المرحوم نور الدين مصطفى بك) فطبعناه قبلا وعلقنا عليه بما يقتضيه المقام ونظرا لنفاسة ما اشتمل عليه وكثرة الرغبة به نفذت تلك الطبعة بالرغم عن كثرة عددها فاحتجنا لاعادة طبعه مرة ثانية لا سيما وان دولة الحجاز ونجد قررت شراء كمية وافرة منه لتبثه فى أنحائها وتوزعه على أبنائها فشرعنا فى طبعه ثانياً بذلك الاعتناء والتدقيق الذى ألفناه وسلكنا سبيله فى كل ما طبعناه وسنطبعه ان شاء الله تعالى والله ولى التوفيق وهو الهادى الى سواء الطريق .

ملتزم طبعه

محمد منير بن عبده أغا النقلى الدمشقى

من علماء الازهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المؤلف رحمه الله الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيراً*

(أما بعد) فهذه كلمات مختصرة فى معنى العلم وانقسامه الى علم نافع. وعلم غير نافع. والتنبيه على فضل علم السلف على علم الخلف فنقول وبالله المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله*

قد ذكر الله تعالى فى كتابه العلم تارة فى مقام المدح وهو العلم النافع. وتارة فى مقام الذم وهو العلم الذى لا ينفع. فأما الأول فمثل قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقوله (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط) وقوله (وقل رب زدنى علما) وقوله (انما يخشى الله من عباده العلماء) وما قص سبحانه من قصة آدم (١) وتعليمه الاسماء. وعرضهم على

(١) وحاصل القصة أن الله أخبر ملائكته أنه سيجعل خليفة في الارض عن القوم الذين أبادهم فاستعظموا ذلك فى نفوسهم لما علموا من سوء أفعال البائدين. وشأن النفس اتباع الشهوة والهوى. فقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أي نحن لاستعدادنا الازلي الخلقى فينا الكفاية لطاعتك. فاراد المولى تعالى ذكره أن يبين لهم خطأ اعتراضهم فقال (انى أعلم مالا تعلمون وعلم آدم الاسماء) التى يخفى على الملائكة علمها وعرض مسمياتها عليهم فقال (أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين فيما اختلج فى خواطركم (قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا) اعترفوا بالعجز لقصورهم عن معرفة الاسماء على أبلغ وجه

الملائكة وقولهم (سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) . وما قصه سبحانه وتعالى من قصة موسى عليه السلام (١)

فأمر الله تعالى آدم عليه السلام أن يخبرهم بذلك اظهاراً لشرف العلم وفضله فاخبرهم بأسماء تلك المسميات فذهبت الشبهة عنهم ورجعوا الى التسليم وتفويض أمر ذلك الى المولى جل وعلا . وبذلك تعلم أن لا شرف يوازي شرف العلم أو يقاربه . وأعني بالعلم العلم النافع الذى تظهر ثمرته بالمتصف به حقيقة لا ادعاء وفقنا الله وإياك الى العلم والعمل به *

(١) وحاصلها على ما ورد في الصحيحين وغيرهما أن نبي الله موسى عليه السلام قام خطيبا في بني اسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا لما يعلم من مقام النبوة والرسالة وانه اختص بالوحي الى قومه وتبليغ الرسالة . فعتب الله تعالى عليه إذ لم يرد العلم اليه سبحانه فأوحى الله اليه أن لي عبداً هو أعلم منك بمجمع البحرين . وهما بحر فارس والروم على مارواه مجاهد وقتادة وغيرهما. ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما والا فهما لايلتقيان الا في البحر المحيط فذهب موسى ومعه فتاه فلما بلغا مجمع البحرين نسيا الحوت الذى جعل فقدانه أمارة وجدان مطلوب موسى عليه السلام الخ ما قص الله في كتابه على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم . ثم ان الاخبار في ذلك ظاهرة في أن العبد الذي أرشد اليه موسى عليه السلام كان أعلم منه . والذي ذهب اليه الجمهور أنه الخضر . ويستفاد من انكار موسى عليه السلام على الخضر بعد ما عاهده على الصبر وعدم الاعتراض والعصيان عليه وتفويض علم ذلك اليه ان الاشياء التى تخالف علم الانسان المنقول عن الشريعة يجب المبادرة الى انكارها والبحث عن مستندها ومصدرها ولا تسلم لفاعلها أياً كان ولو كان أعلم أهل زمانه وأنبغ عصره وأقرانه وأصلح وقته . وبهذا تعلم سقوط ما فى كلام بعض المتصوفة القائل بأن الشيخ المربى يسلم له حاله أى لا يعترض عليه ولا يوجه نحوه سؤال اذا فعل فعلا أو قال قولا يخالف ظاهر الكتاب والسنة والعمل المنقول عن صاحب الشريعة المطهرة . ولو سلم ذلك لتعطلت الشريعة . ولبطل العمل بالمروى . ولعمل كل بحسب رأيه وهواه . ولما كان هناك قانون

وقوله للخضر (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا) فهذا هو العلم النافع

وقد أخبر عن قوم انهم أوتوا علما ولم ينفعهم علمهم . فهذا علم نافع في نفسه لكن صاحبه لم ينتفع به . قال تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) [١] وقال (واتل عليهم نبأ [٢] الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين

كلي يرجع اليه . ولغاير قوله تعالى (فان تنازعتم في شيء فردوه الي الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)

(١) مثل الله جل ذكره حال الذين اوتوا التوراة والانجيل من اليهود وحفظوها ثم لم يعملوا بما فيها ولا انتفعوا باياتها من التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم واتباعه ونصرة دينه والاقتداء بأقواله وأفعاله بالحمار يحمل على ظهره أسفاراً أي كتبا من العلم لا ينتفع بها ولا يعقل ما فيها بل يمشي بها ولا يدري منها الا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب . ومثلهم من أوتي القرآن والسنة ولم يعمل بهما وبئس مثلا مثلهم وتخصيص الحمار بالتشبيه به لانه اقل الحيوانات رغبة به لقلة الانتفاع به وفي الامثال العربية هو اخلى من جوف حمار قال الشاعر :

زوامل أسفار ولا علم عندهم يجيدونه الا كعلم الاباعر
لعمرك مايدري البعير اذا غدا بأوساقه أو راح مافي الغرائر

والبعير من اسماء الحمار على مانقل عن ابن خالويه

(٢) أي واذكر يامحمد صلى الله عليه وسلم لقومك خبره الذى له شأن وخطر قيل انه بلعام بن باعوراء على ما رواه ابن عباس . وكان من العباد في بني اسرائيل وهو الانسب بالمقام . وقد اوتي علماً ببعض الكتب السماوية فوسوس اليه الشيطان فكفر بها ونبذها وراء ظهره . ولا يخفى على المتأمل ما في قوله تعالى (فاتبعه الشيطان) من المبالغة . اذ جعل من انساخ عن آيات الله إماماً للشيطان والشيطان يتبعه وهو من الذم بمكان ونظير ذلك قول الشاعر

ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه) وقال تعالى (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون) (١) الآية وقال (وأضله الله على علم) على تأويل من تأول الآية على علم عند من أضله الله*

وأما العلم الذي ذكره الله تعالى على جهة الذم له . فقوله فى السحر (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) وقوله (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) وقوله تعالى (يعلمون ظاهراً من

وكنت فتى من جند ابليس فارتقى بي الحال حتى صار ابليس من جندي

نعوذ بالله من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع . وله قصة مشهورة ذكرها المفسرون مع موسى عليه السلام وقومه وحصول الفتنة بسبب النساء والله أعلم بصحتها *

(١) أخبر الله تعالى أنه خلف من بعد اولئك القوم الذين ذكرهم الله تعالى قبل خلف سوء في عصر النبي صلي الله عليه وآله وسلم وهم اليهود ورثوا كتاب الله تعلموه وضيعوا العمل به فخالفوا حكمه يأخذون الرشوة فيه من عرض هذا العاجل الأدنى ويقولون اذا فعلوا ذلك ان الله سيغفر لنا ذنوبنا تمنيا على الله الأماني وإن يأتهم عرض مثله في الرشوة يأخذوه أي يستحلوه ولم يرتدعوا عنه فهم أهل اصرار على ذنوبهم وليسوا بأهل انابة ولا توبة فكلما أشرف لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالا كان أو حراماً ومثلهم من ورث العلم واتخذه ذريعة لأكل أموال الناس بالباطل . عصمنا الله من ذلك*

الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) *

ولذلك جاءت السنة بتقسيم العلم الى نافع والى غير نافع .والاستعاذة من العلم الذى لا ينفع . وسؤال العلم النافع * ففى صحيح مسلم عن زيد ابن أرقم أن النبى ﷺ كان يقول « اللهم انى أعوذ (٢) بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها » * وخرجه أهل السنن من وجوه متعددة عن النبى ﷺ . وفى بعضها ومن دعاء لا يسمع . وفى بعضها أعوذ بك من هؤلاء الاربع * وخرج النسائى من حديث جابر أن النبى ﷺ كان يقول « اللهم انى أسألك علماً نافعاً وأعوذ بك من علم لا ينفع » * وخرجه ابن ماجه ولفظه إن النبى ﷺ قال « سلوا الله علما نافعاً وتعوذوا بالله من علم لا ينفع » * وخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة ان النبى ﷺ كان يقول « اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علماً » * وخرج النسائى من حديث أنس أن النبى ﷺ كان يدعو « اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وارزقنى علماً تنفعنى به » * وخرج أبو نعيم من حديث أنس أن النبى ﷺ كان يقول « اللهم انا نسألك ايماناً دائماً فرب ايمان غير دائم وأسألك علماً نافعاً فرب علم غير نافع » * وخرج أبو داود من حديث بريدة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان من البيان سحراً وان من العلم

---

(٢) يقال عذت به أعوذ عوذاً وعياذاً لجأت اليه واعتصمت به ومن ذلك المعوذتان (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) لانهما عوذتا صاحبهما أي عصمتاه من كل سوء

جهلا » (١) وان صعصعة بن صوحان فسر قوله « ان من العلم جهلا » أن يتكلف العالم الى علمه مالا يعلم فيجهله ذلك * ويفسر أيضا بأن العلم الذى يضر ولا ينفع جهل . لأن الجهل به خير من العلم به . فاذا كان الجهل به خيراً منه فهو شر من الجهل . وهذا كالسحر وغيره من العلوم المضرة فى الدين أو فى الدنيا *

وقد روى عن النبي ﷺ تفسير بعض العلوم التى لا تنفع . ففى مراسيل أبى داود عن زيد بن أسلم « قال قيل يا رسول الله ما أعلم فلانا قال بم قالوا بأنساب الناس (٢) قال علم لا ينفع وجهالة لا تضر » * وخرجه

(١) الحديث رواه أبو داود عن صخر بن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « ان من البيان سحراً وان من العلم جهلا وان من الشعر حكما وان من القول عيلا » قال أبو داود فقال صعصعة بن صوحان صدق نبي الله صلى الله عليه وسلم . أما قوله ان من البيان سحراً فالرجل يكون عليه الحق وهو الحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق . وأما قوله من العلم جهلا فيتكلف العالم الى علمه ما لا يعلم فيجهله . وأما قوله من الشعر حكما فهى هذه المواعظ والامثال التى يتعظ بها الناس وأما قوله من القول عيلا فعرضك كلامك وحديثك على من ليس من شأنه ولا يريده اه . قال ابن الاثير يقال عالت للضالة أعيل عيلا اذا لم تدر أي جهة تبغيها . كأنه لم يهتد لمن يطلب كلامه فعرضه على من لا يريده ويأتي الكلام على باقي الحديث فيما بعد ان شاء الله *

(٢) هو علم يتعرف منه أنساب الناس وهو كثير النفع . عظيم الفائدة جليل القدر أشار القرآن الحكيم اليه في قوله تعالى (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) وحثت السنة على تعلمه ومعرفته كما سيأتي في كلام المصنف بعد وقد اعتنى العرب في ضبط أنسابهم الى أن كثر أهل الاسلام واختلطت أنسابهم بالأعجام فتعذر ضبطه بالآباء فانتسب كل مجهول النسب الى بلده

أبو نعيم فى كتاب رياض المتعلمين من حديث بقية عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة مرفوعاوفيه« انهم قالوا أعلم الناس بأنساب العرب وأعلم الناس بالشعر وبما اختلفت فيه العرب وزاد فى آخره العلم ثلاثة ما خلاهن فهو فضل : آيه محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة » : وهـذا الاسناد لا يصح وبقية دلسه عن غير ثقة ، وآخر الحـديث خرجه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا « العلم ثلاثة ما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة » وفى اسناده عبد الرحمن بن زياد الافريقي وفيه ضعف مشهور (١) *

أو حرفته أو نحو ذلك ولا سيما في زماننا هذا فانك لا تجد من يعرف نسبه الا ما قل وندر . وهذا العلم مشهور طويل الذيل : وقد صنف فيه كتب كثيرةوأول من فتح هـذا الباب وضبط علم الأنساب الامام النسابة هشام بن محمد السائب الكلبي المتوفي سنة ٢٠٤ فانه صنف فيه خمسة كتب وهي المنزلة . والجمهرة . والوجيز . والفريد . والملوك . ثم اقتفى أثره جماعة : منهم أبو الحسن أحمد بن يحيى البلاذري المتوفي سنة ٢٧٩ صاحب كتاب أنساب الاشراف . وكتاب فتوح البلدان . وعبد الملك بن هشام صاحب السيرة المتوفي سنة ٢١٣ . وأبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي . والامام أبو سعيد عبد الكريم المروزي الحافظ المشهور بالسمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ صاحب الأنساب : وهذا انما هو فيما يوصل الى صلة الارحام كما سيأتى عن المصنف . والحديث محمول على التوغل فيه أو ما زاد على قدر الحاجة جمعاً بين الاحاديث *

(١) وأيضاً في سنده عبد الرحمن بن رافع قاضي إفريقية وقد ضعفهما جماعة . وقال اسحق بن راهويه سمعت يحيى بن سعيد يقول عبد الرحمن بن زياد ثقة وكذا في حق عبد الرحمن بن رافع : وقال ابن معين انه صالح : ورواه

وقد ورد الامر بأن يتعلم من الانساب ما توصل به الارحام من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم » أخرجه الامام احمد والترمذى . وخرجه حميد ابن زنجويه من طريق آخر عن أبي هريرة مرفوعا « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ثم انتهوا . وتعلموا من العربية ما تعرفون به كتاب الله ثم انتهوا . وتعلموا من النجوم ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر ثم انتهوا » وفى اسناد روايته ابن لهيعة * وخرج أيضاً من رواية نعيم بن أبى هند قال قال عمر : تعلموا من النجوم ما تهتدون به فى بركم وبحركم ثم امسكوا وتعلموا من النسبة ما تصلون به أرحامكم وتعلموا ما يحل لكم من النساء ويحرم عليكم ثم انتهوا * وروى مسعر عن محمد ابن عبد الله قال قال عمر بن الخطاب « تعلموا من النجوم ما تعرفون به القبلة والطريق » *

وكان النخعي لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدى به * ورخص فى تعلم منازل القمر أحمد وإسحق ويتعلم من أسماء النجوم ما يهتدى به : وكره قتادة تعلم منازل القمر : ولم يرخص ابن عيينة فيه ذكره حرب عنهما . وقال طاوس رب ناظر فى النجوم ومتعلم حروف أبى جاد ليس له عند الله خلاق * خرجه حرب . وخرجه حميد بن

الحاكم باسناد حسن والآية المحكمة هي أم الكتاب التى يقابلها المتشابه يعني الصريحة المعنى لا يتطرقها الاحتمال . والسنة القائمة هي الثابتة بحفظ سندها ومتنها . والفريضة العادلة ما اتفق عليه المسلمون لان العمل به واجب ومتبع ومقتدى به . وقوله ما خلاهن فهو فضل أي زائد لا ضرورة تدعو اليه *

زنجويه من رواية طاوس عن ابن عباس . وهذا محمول على علم التأثير لا علم التسيير فان علم التأثير باطل محرم * وفيه ورد الحديث المرفوع « ومن اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر »(١) خرجه أبو داود من حديث ابن عباس مرفوعا وخرج أيضاً من حديث قبيصة مرفوعا « العيافة والطيرة والطرق من الجبت . . »(٢)

(١) معنى اقتبس أخذ وتعلم وحصل علما من علومها أو مسألة : قال الخطابي وعلم النجوم المنهي عنه هو ما يدل عليه أهل التنجيم من علم الحوادث التي لم تقع كمجيء الامطار وتغيير الاسعار . وأما مايعلم به أوقات الصلاة وجهة القبلة فغير داخل فيما نهى عنه اه وقد بسط ذلك في شرح السنة وحاصله ان المنهي عنه من علوم النجوم ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث التي لم تقع وربما تقع في مستقبل الزمان مثل إخبارهم بوقت هبوب الرياح ووقوع الكسوف والخسوف ومجيء المطر ووقوع الثلج وظهور الحر والبرد وتغيير الاسعار من ارتفاع أوانخفاض ويزعمون انهم يدركون معرفتها بسير الكواكب واجتماعها وافتراقها وهذا علم استأثر الله به لا يعلمه أحد غيره كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز بقوله (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) الآية : وأما ما يدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم الذى يعرف به الزوال وجهة القبلة والطرق فغير داخل في النهي لقوله تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) ولقوله تعالى (وبالنجم هم يهتدون) فان فيه إخباراً بأن النجوم طرق لمعرفة الاوقات والمسالك ولولاها لم يهتدالناس لاستقبال القبلة . ولما سيأتي عن عمر رضى الله عنه بعد في كلام المؤلف والله الموفق

(٢) العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها كما يتفاءل بالعقاب على العقاب . وبالغراب على الغربة . وبالهدهد على الهدى وهكذا وهو من عادات العرب يقال عاف يعيف عيفاً اذا زجر وحدث وظن . وكان بنو أسد يوصفون بها ومما يحكى عنهم على ما نقله ابن الاثير ان قوما من

والعيافة زجر الطير : والطرق الخط فى الارض *

فعلم تأثير النجوم باطل محرم . والعمل بمقتضاه كالتقرب الى النجوم وتقريب القرابين لها كفر * وأما علم التسيير فاذا تعلم منه ما يحتاج اليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق كان جائزاً عند الجمهور وما زاد عليه

الجن تذاكروا عيافة بني أسد فاتوهم فقالوا ضلت لنا ناقة فلو أرسلتم معنا من يعيف فقالوا لغليم منهم انطلق معهم فاستردفه أحدهم ثم ساروا فلقيهم عقاب كاسرة احدى جناحيها فاقشعر الغلام وبكى فقالوا مالك فقال كسرت جناحاً ورفعت جناحاً وحلفت بالله صراحاً ما أنت بانسي ولا تبغي لقاحاً

والطيرة بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن التشاؤم بالشيء . وأصله فيما يقال التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرها . وكانت العرب تعتقدان له تأثيراً في جلب نفع ودفع ضر فنفاه الشارع وابطله ونهى عنه وأخبر انه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضر * والطرق الخط في الارض . وقد نقل ابن الاثير تفسيره عن ابن عباس قال وهو الذي يخطه الحازي وهو علم قد تركه الناس يأتي صاحب الحاجة الى الحازي فيعطيه حلواناً فيقول له اقعد حتى أخط لك وبين يدي الحازي غلام له معه ميل ثم يأتي الى أرض رخوة فيخط فيها خطوطاً كثيرة بالعجلة لئلا يلحقها العدد ثم يرجع فيمحو منها علي مهل خطين وغلامه يقول للتفاؤل ابني عيان اسرعا البيان فان بقي خطان فهما علامة النجح وان بقي خط واحد فهو علامة الخيبة وهو ضرب من الكهانة *

والخط المشار اليه في الحديث علم معروف وللناس فيه تصانيف كثيرة وهو معمول به الى الآن ولهم فيه أوضاع واصطلاح وعمل كثير يستخرجون به الضمير وغيره وقد يصيبون فيه . والجبت قال الجوهري كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك وهذا ليس من محض العربية لاجتماع الجيم والتاء في كلمة واحدة من غير حرف ذو لقى . وفي الفائق هو السحر والكهانة

فلا حاجة اليه وهو يشغل عما هو أهم منه . وربما أدى التدقيق فيه الى اساءة الظن بمحاريب المسلمين فى أمصارهم كما وقع ذلك كثيراً من أهل هذا العلم قديما وحديثا وذلك يفضى الى اعتقاد خطأ الصحابة والتابعين فى صلاتهم فى كثير من الامصار وهو باطل *

وقد أنكر الامام احمد الاستدلال بالجدى وقال انما ورد ما بين المشرق والمغرب قبلة : يعنى لم يرد اعتبار الجدى ونحوه من النجوم . وقد أنكر ابن مسعود على كعب قوله ان الفلك تدور * وأنكر ذلك مالك وغيره * وأنكر الامام احمد على المنجمين قولهم ان الزوال يختلف فى البلدان . وقد يكون انكارهم أو انكار بعضهم لذلك لأن الرسل لم تتكلم فى هذا وان كان أهله يقطعون به وان كان الاشتغال به ربما أدى الى فساد عريض *

وقد اعترض بعض من كان يعرف هذا على حديث النزول ثلث الليل الآخر وقال ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان فلا يمكن أن يكون النزول فى وقت معين . ومعلوم بالضرورة من دين الاسلام قبح هذا الاعتراض . وان الرسول ﷺ أو خلفاءه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه بل بادروا الى عقوبته والحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين *

وكذلك التوسع فى علم الانساب هو مما لا يحتاج اليه : وقد سبق عن عمر وغيره النهى عنه مع ان طائفة من الصحابة والتابعين كانوا يعرفونه ويعتنون به . وكذلك التوسع فى علم العربية لغة ونحواً هو مما يشغل عن

العلم الأهم والوقوف معه يحرم علماً نافعاً . وقد كره القاسم بن مخيمرة علم النحو وقال أوله شغل وآخره بغي . وأراد به التوسع فيه * ولذلك كره احمد التوسع فى معرفة اللغة وغريبها وأنكر على أبي عبيدة توسعه فى ذلك وقال هو يشغل عما هو أهم منه . ولهذا يقال ان العربية فى الكلام كالملح فى الطعام يعنى أنه يؤخذ منها مايصلح الكلام كما يؤخذ من الملح ما يصلح الطعام وما زاد على ذلك فانه يفسده وكذلك علم الحساب يحتاج منه الى ما يعرف به حساب ما يقع من قسمة الفرائض والوصايا . والاموال التى تقسم بين المستحقين لها والزائد على ذلك مما لا ينتفع به الا فى مجرد رياضة الاذهان وصقالها لا حاجة اليه ويشغل عما هو أهم منه * وأما ماأحدث بعد الصحابة من العلوم التى توسع فيها أهلها وسموها علوما وظنوا أن من لم يكن عالما بها فهو جاهل أو ضال فكلها بدعة وهى من محدثات الامور المنهى عنها . فمن ذلك ما أحدثته المعتزلة من الكلام فى القدر وضرب الامثال لله . وقد ورد النهى عن الخوض فى القدر * وفى صحيحي ابن حبان والحاكم عن ابن عباس مرفوعا «لا يزال أمر هذه الامة موافيا ومقاربا ما لم يتكلموا فى الولدان والقدر» وقد روى موقوفا ورجح بعضهم وقفه * وخرج البيهقى من حديث ابن مسعود مرفوعاً «اذا ذكر أصحابى فامسكوا واذا ذكر النجوم فامسكوا» وقد روى من وجوه متعددة فى أسانيدها مقال * وروى عن ابن عباس انه قال لميمون بن مهران اياك والنظر فى النجوم فانها تدعو الى الكهانة والقدر فانه يدعو الى الزندقة واياك وشتم أحد من أصحاب محمد ﷺ فيكبك الله فى النار على وجهك * وخرجه أبو نعيم مرفوعا ولا يصح رفعه *

والنهي عن الخوض في القدر يكون على وجوه منها ضرب كتاب الله بعضه ببعض فينزع المثبت للقدر بآية والنافي له بأخرى. ويقع التجادل في ذلك. وهذا قد روى انه وقع في عهد النبي ﷺ وان النبي ﷺ غضب من ذلك ونهى عنه وهذا من جملة الاختلاف في القرآن والمراء فيه وقد نهى عن ذلك (١)*

---

(١) وقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة تقتضي النهي عن الجدال والمراء في القرآن وغيره نورد لك أهمها . روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ان أبغض الرجال الى الله الالد الخصم » ورواه النسائي والترمذي أيضاً . والالد بتشديد الدال المهملة الشديد الخصومة . والخصم بكسر الصاد هو الذي يحج من يخاصمه *

وروي الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل ثم قرأ (ما ضربوه لك الا جدلا) وقال الترمذي حديث حسن صحيح ورواه أيضاً ابن أبي الدنيا ورواه الطبراني في كبيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال كنا جلوسا عند باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نتذاكر ينزع هذا بآية وينزع هذا بآية فخرج علينا رسول الله صلى عليه وآله وسلم كما يفقأ في وجهه حب الرمان فقال يا هؤلاء بهذا بعثتم أم بهذا أمرتم لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » فالمؤمن لا يماري ولا يجادل بل يتبع الرشد ويجتنب الغي ويرد ما اختلف فيه وخفي عليه الى العالم به والراسخ في العلم . ولذلك ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما على ما رواه الطبراني أيضاً في الكبير عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان عيسى عليه السلام قال انما الامور ثلاثة . أمر تبين لك رشده فاتبعه . وأمر تبين لك غيه فاجتنبه . وأمر اختلف فيه فرده الى عالم . قال الحافظ المنذرى اسناده لا باس به والله أعلم

ومنها الخوض فى القدر اثباتاً ونفياً بالأقيسة العقلية : كقول القدرية لو قدر وقضى ثم عذب كان ظالما . وقول من خالفهم ان الله جبر العباد على أفعالهم ونحو ذلك *

ومنها الخوض فى سر القدر . وقد ورد النهى عنه عن على وغيره من السلف فان العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك . ومن ذلك أعنى محدثات الامور ما أحدثه المعتزلة ومن حذا حذوهم من الكلام فى ذات الله تعالى وصفاته بأدلة العقول وهو أشد خطراً من الكلام فى القدر لأن الكلام فى القدر كلام فى أفعاله وهذا كلام فى ذاته وصفاته *

وينقسم هؤلاء الى قسمين * أحدهما من نفى كثيراً مما ورد به الكتاب والسنة من ذلك لاستلزامه عنده التشبيه بالمخلوقين كقول المعتزلة لو رؤى لكان جسما لانه لا يرى الا فى جهة : وقولهم لو كان له كلام يسمع لكان جسما ووافقهم من نفى الاستواء [1] فنفوه لهذه

---

(١) الاستواء المراد به هنا الوارد في القرآن الكريم فى قوله تعالى (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش) الآية . وقوله (تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى) وقوله تعالى (ثم استوى الى السماء وهى دخان) وقوله (ثم استوى على العرش الرحمن) ولا شك ان من نفي الاستواء ليس مراده نفي الآيات القرآنية الواردة في ذلك ولا الاحاديث النبوية المثبتة له بل غرضه نفى معنى الاستواء المعلوم لنا المشاهد بالمخلوق المحس تنزيها للباري تعالى عن المشابهة والمماثلة أخذاً بقوله تعالى (ليس كمثله شيء) المقتضى لنفي المثلية المطلقة العامة التي

الشبهة : وهذا طريق المعتزلة والجهمية وقد اتفق السلف على تبديعهم وتضليلهم وقد سلك سبيلهم فى بعض الامور كثير ممن انتسب الى السنة والحديث من المتأخرين *

والثانى من رام اثبات ذلك بأدلة العقول التى لم يرد بها الأثر ورد على اولئك مقالتهم كما هى طريقة مقاتل بن سليمان ومن تابعه كنوح ابن أبى مريم وتابعهم طائفة من المحدثين قديمًا وحديثًا . وهو أيضًا مسلك الكرامية فمنهم من أثبت لاثبات هذه الصفات الجسم اما لفظا وإما معنى . ومنهم من أثبت لله صفات لم يأت بها الكتاب والسنة كالحركة وغير ذلك مما هي عنده لازم الصفات الثابتة *

وقد أنكر السلف على مقاتل قوله فى رده على جهم بأدلة العقل

تستغرق جميع الافراد الجزئية الا ان فيه مخالفة لاصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعدهم ومبالغة وغلواً في ذلك ولذلك يقولون في تقرير نفي المثل (لا فوق ولا تحت ولا داخل ولا خارج ولا متصل ولا منفصل ولا أمام ولا خلف) الى غير ذلك مما يوهم بظاهره نفيه جل وعلا تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وبهذا تمسك جماعة من سلف الامة وخلفها ورد على من نفى الاستواء وظن ان النفي انما هو للآيات القرآنية والاحاديث النبوية وشنع عليه ونسبه الى الكفر والتبديع والتفسيق مغالياً في الرد ومبالغا في التنفير عنه كما هو الشأن في ذلك وخير الامور أوساطها وهو ما كان عليه السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم من إمرار آيات الصفات كلها وأحاديثها كما جاءت من غير تفسير لها ولا تكييف ولا تمثيل كما سيأتى بيانه في كلام المؤلف رحمه الله تعالى بعد : وما أحسن جواب الامام مالك حين سئل عن الاستواء فقال الاستواء معلوم . والكيف مجهول . والسؤال عنه بدعة . ولذلك لا ينبغي اطالة الكلام فيه ولا الخوض في معانيه . بل الوقوف مع السلف الصالح رضي الله عنهم *

وبالغوا فى الطعن عليه . ومنهم من استحل قتله ، منهم مكى بن ابراهيم شيخ البخارى وغيره *

والصواب ما عليه السلف الصالح من امرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تفسير لهـا ولا تكييف ولا تمثيل : ولا يصح من أحد منهم خلاف ذلك البتة خصوصاً الامام احمد ولا خوض فى معانيها ولا ضرب مثل من الامثال لها : وان كان بعض من كان قريباً من زمن الامام احمد فيهم من فعل شيئاً من ذلك اتباعاً لطريقة مقاتل فلا يقتدى به فى ذلك انما الاقتداء بأئمة الاسلام كابن المبارك . (١) ومالك . والثورى (٢) والأوزاعي . والشافعى . وأحمد . واسحق . وأبى

(١) هو الامام الحافظ العلامة فخر المجاهدين قدوة الزاهدين أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك الحنظلي صاحب التآليف النافعة والرحلات الشاسعة توفى سنة ١٨١ قال أبو اسحق ابن المبارك امام المسلمين . وقال اسماعيل بن عياش ما على الارض مثل ابن المبارك . وقال الامام أحمد بن حنبل لم يكن في زمان ابن المبارك أكثر طلباً للعلم منه قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ والله إني لأُحبه في الله وأرجو الخير بحبه لما منحه الله من التقوى والعبادة والاخلاص والجهاد وسعة العلم والاتقان والمواساة والفتوة والصفات الحميـدة اه ومناقبه وثناء الامة عليـه لا تحصى . ومن كلامه اذا غلبت محاسن الرجل على مساويه لم تذكر المساوي واذا غلبت المساوي على المحاسن لم تذكر المحاسن والله أعلم

(٢) هو الامام شيخ الاسلام سيد الحفاظ أبو عبد الله الثوري الكوفي الفقيه المتوفى سنة ١٦١ قال يحيي بن معين وشعبة وجماعة فيه سفيان أمير المؤمنين في الحديث وقال الامام احمد بن حنبل لم يتقدم الثوري في قلبى أحد. وقال الاوزاعي لم يبق من تجتمع عليه الامة بالرضا والصحة الا سفيان. وقال

عبيد . ونحوهم*

وكل هؤلاء لا يوجد في كلامهم شيء من جنس كلام المتكلمين فضلا

ابن المبارك كتبت عن ألف ومائة شيخ ما فيهم أفضل من سفيان وقال أيضاً لا أعلم على وجه الارض أعلم من سفيان . وقال القطان سفيان فوق مالك في كل شيء وثناء الائمة عليه كثير يحتاج الي تأليف ولذلك جمع الحافظ ابن الجوزى مناقب هذا الامام في مجلد وقد اختصره العلامة الذهبي وذكره في تاريخه : ومن كلامه : ما استودعت قلبي شيئا قط فخانني . وقال يحيي بن يمان سمعت سفيان يقول العالم طبيب الدين والدرهم داء الدين فاذا اجتر الطبيب الداء اليه متى يداوي غيره : وقال الثوري رضى الله عنه أيضاً وددت لو أني نجوت من العلم لا على ولا لى وما من عمل أنا أخوف على منه. وقال أبو أسامة سمعت سفيان يقول ليس طلب الحديث من عدة الموت لكنه علة يتشاغل بها الرجل. قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي اذا كان علم الآثار مدخولا فما ظنك بعلم المنطق والجدل وحكمة الاوائل التي تسلب الايمان وتورث الشكوك والحيرة التي لم تكن والله من علم الصحابة ولا التابعين ولا من علم الأوزاعي والثوري ومالك وأبي حنيفة وابن أبي ذئب وشعبة ولا والله عرفها ابن المبارك ولا أبو يوسف القائل من طلب العلم بالكلام تزندق ولا وكيع ولا ابن مهدي ولا ابن وهب ولا الشافعي ولا عفان ولا أبو عبيد ولا ابن المديني واحمد وأبو ثور والمزني والبخارى والأثرم ومسلم والنسائي وابن خزيمة وابن شريح وابن المنذر وأمثالهم بل كانت علومهم القرآن والحديث والفقه والنحو وشبه ذلك اه قلت صدق الحافظ والله فيما قال مع أنه أدرك في زمنه علماء محدثين عاملين بالكتاب والسنة بخلاف زماننا هذا فقد شغل علماؤنا الوسائل وعنوا بها حتي ظن الكثير أنها المقصودة لذاتها وترك الاشتغال بالعلم النافع أعني به علم القرآن والحديث والعمل بهما. اللهم اهد علماءنا ووفقهم لاحياء علم الكتاب والسنة والعمل بهما وجعلهما مقصودين لذاتهما كما كان السلف الصالح رضى الله عنهم .

عن كلام الفلاسفة : ولم يدخل ذلك فى كلام من سلم من قدح وجرح * وقد قال أبو زرعة الرازى كل من كان عنده علم فلم يصن علمه واحتاج فى نشره الى شيء من الكلام فلستم منه*

ومن ذلك أعنى محدثات العلوم ما أحدثه فقهاء أهل الرأى من ضوابط وقواعد عقلية ورد فروع الفقه اليها . وسواء أخالفت السنن أم وافقتها طرداً لتلك القواعد المقررة وان كان أصلها مما تأولوه على نصوص الكتاب والسنة لكن بتأويلات يخالفهم غيرهم فيها * وهذا هو الذى أنكره أئمة الاسلام على من أنكروه من فقهاء أهل الرأى بالحجاز والعراق : وبالغوا فى ذمه وانكاره *

فأما الأئمة وفقهاء أهل الحديث فانهم يتبعون الحديث الصحيح حيث كان اذا كان معمولا به عند الصحابة : ومن بعدهم : أوعند طائفة منهم * فأما ما اتفق على تركه فلا يجوز العمل به لانهم ما تركوه الا على علم انه لا يعمل به * قال عمر بن عبد العزيز خذوا من الرأى ما يوافق من كان قبلكم فانهم كانوا أعلم منكم *

فاما ما خالف عمل أهل المدينة من الحديث فهذا كان مالك يرى الاخذ بعمل أهل المدينة * (١) والاكثرون أخذوا بالحديث *

---

(١) قال العلامة الشوكاني بعد ما نقل الخلاف فيه وبين أن اجماع أهل المدينة ليس بحجة عند الجمهور: وقال القاضي عبد الوهاب اجماع أهل المدينة على ضربين نقلي واستدلالى فالاول على ثلاثة أضرب منه نقل شرع مبتدأ من جهة النبى صلى الله عليه وآله وسلم إما قول أو فعل أو اقرار فالاول كنقلهم الصاع والمد والاذان والاقامة والاوقات والاجناس ونحوه .

ومما أنكره أئمة السلف الجدال والخصام والمراء فى مسائل الحلال والحرام أيضاً ولم يكن ذلك طريقة أئمة الاسلام : وانما أحدث ذلك بعدهم كما أحدثه فقهاء العراقين فى مسائل الخلاف بين الشافعية والحنفية وصنفوا كتب الخلاف ووسعوا البحث والجدال فيها * وكل ذلك محدث لا أصل له وصار ذلك علمهم حتى شغلهم ذلك عن العلم النافع *

وقد أنكر ذلك السلف وورد فى الحديث المرفوع فى السنن « ما ضل قوم بعد هدى الا أوتوا الجدل ثم قرأ (ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون) وقال بعض السلف اذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل . وأغلق عنه باب الجدل : واذا أراد الله بعبد شراً أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل*

وقال مالك أدركت أهل هذه البلدة وانهم ليكرهون هذا

والثانى نقلهم المتصل كعهدة الرقيق وغير ذلك كتركهم أخذ الزكاة من الخضروات مع انها كانت تزرع بالمدينة وكان النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده لا يأخذون منها قال وهذا النوع من اجماعهم حجة يلزم عندنا المصير اليه وترك الاخبار والمقاييس به لااختلاف بين أصحابنا فيه قال والثاني وهو اجماعهم من طريق الاستدلال فاختلف اصحابنا فيه على ثلاثة أوجه : أحدها انه ليس باجماع ولا بمرجح وهو قول أبي بكر وأبي يعقوب الرازى والقاضي أبي بكر وابن فورك والطيالسى وأبي فرج والابهري وأنكر كونه مذهبا لمالك : ثانيها انه مرجح وبه قال بعض أصحاب الشافعى : ثالثها انه حجة ولم يحرم خلافه اه . وبما أوردناه يتبين لك ان ما ذهب اليه المالكية من أن عمل أهل المدينة حجة عند مالك وان خالف الحديث ليس على اطلاقه بل على تفصيل كما تقدم وكذلك قول شيخنا انه مرجح عند تعارض الاخبار غير ظاهر لمخالفته المنقول تدبر*

الاكثار (١) الذى فيه الناس اليوم : يريد المسائل وكان يعيب كثرة الكلام والفتيا ويقول يتكلم أحدهم كأنه جمل مغتلم يقول هو كذا هو كذا يهدر فى كلامه وكان يكره الجواب فى كثرة المسائل ويقول قال الله

---

(١) واعلم ان الاكثار من الاسئلة مذموم والدليل عليه النقل المستفيض من الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح قال العلامة الشاطبي من الدليل على ذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) الآية وفي الحديث « انه عليه الصلاة والسلام قرأ (ولله على الناس حج البيت) الآية فقال رجل يا رسول الله أكل عام فاعرض ثم قال يا رسول الله أكل عام ثلاثا وفي كل ذلك يعرض وقال في الرابعة والذى نفسي بيده لو قلتها لوجبت ولو وجبت ماقمتم بها ولو لم تقوموا بها لكفرتم فذرونى ما تركتكم » وفي مثل هذا نزلت (لا تسألوا عن أشياء) الآية . وكره عليه الصلاة والسلام المسائل وعابها ونهى عن كثرة السؤال . وكان عليه الصلاة والسلام يكره السؤال فيما لم ينزل فيه حكم وقال « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وعفا عن أشياء رحمة بكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها » . وقال ابن عباس ما رأيت قوماً خيراً من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه الا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض صلى الله عليه وآله وسلم كلهن في القرآن (ويسألونك عن المحيض . (ويسألونك عن اليتامى) . (يسألونك عن الشهر الحرام) ما كانوا يسألون الا عما ينفعهم . قال الشاطبي يعنى أن هذا كان الغالب فيهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ذرونى ما تركتكم فانما هلك من قبلكم بكثرة سوالهم واختلافهم على انبيائهم » ومثل ذلك قصة أصحاب البقرة قال ابن عباس لو ذبحوا بقرة ما لاجزأتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم حتى اشتروها بملء مسكها ذهبا ذبحوها وما كادوا يفعلون . وعن ابن عمر قال لا تسألوا عما لم يكن فانى سمعت عمر يلعن من سأل عما لم يكن . وللسلف في ذلك كلام كثير اقتصرنا على المهم منه خوف الاطالة وفيه الكفاية لمن عقل واهتدي واتبع سبيلهم *

عز وجل (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) فلم يأته فى ذلك جواب. وقيل له الرجل يكون عالماً بالسنن يجادل عنها قال لا ولكن يخبر بالسنة فان قبل منه والا سكت: وقال المراء والجدال فى العلم يذهب بنور العلم * وقال المراء فى العلم يقسى القلب ويورث الضغن: وكان يقول فى المسائل التى يسئل عنها كثيراً لا أدرى: وكان الامام أحمد يسلك سبيله فى ذلك *

وقد ورد النهي عن كثرة المسائل وعن أغلوطات المسائل (١) وعن المسائل قبل وقوع الحوادث وفى ذلك ما يطول ذكره: ومع هذا ففي كلام السلف والأئمة كمالك والشافعى وأحمد واسحاق التنبيه على مأخذ الفقه ومدارك الأحكام بكلام وجيز مختصر يفهم به المقصود من غير اطالة ولا إسهاب: وفى كلامهم من رد الاقوال المخالفة للسنة بألطف اشارة وأحسن عبارة بحيث يغنى ذلك من فهمه عن اطالة المتكلمين فى ذلك بعدهم بل ربما لم يتضمن تطويل كلام من بعدهم من الصواب فى ذلك ما تضمنه كلام السلف والأئمة مع اختصاره وايجازه

---

(١) قال الخطابى يقال مسألة غلوط يغلط فيها كفرس ركوب وشاة حلوب فاذا جعلتها اسما زدت هاء فقلت غلوطة كما يقال حلوبة وركوبة وأراد مسائل يغالط بها العلماء ليزلوا فيهيج بذلك شر وفتنة وانما نهي عنها لانها غير نافعة فى الدين ولا تكاد تكون الا فيما لا يقع * يعنى أن السائل يأتي بمسائل يوقع بها المسئول عنها في الغلط لاشكال فيها فيمتحنه ليظهر فضل نفسه وقلة علم المسئول عنها. ومثله قول ابن مسعود أنذرتكم صعاب النطق قال الاوزاعي هي شرار المسائل*

فما سكت من سكت من كثرة الخصام والجدال من سلف الامة جهلا ولا عجزاً ولكن سكتوا عن علم وخشية لله . وما تكلم من تكلم وتوسع من توسع بعدهم لاختصاصه بعلم دونهم ولكن حباً للكلام وقلة ورع كما قال الحسن وسمع قوما يتجادلون هؤلاء قوم ملوا العبادة وخف عليهم القول وقل ورعهم فتكلموا *

وقال مهدى بن ميمون سمعت محمد بن سيرين وما رآه رجل ففطن له فقال انى أعلم ما يريد انى لو أردت أن أماريك كنت عالماً بأبواب المراء : وفى رواية قال أنا أعلم بالمراء منك ولكنى لا أماريك * وقال ابراهيم النخعى ما خاصمت قط * وقال عبد الكريم الجورى ما خاصم ورع قط * وقال جعفر بن محمد اياكم والخصومات فى الدين فانها تشغل القلب . وتورث النفاق*

وكان عمر بن عبد العزيز يقول اذا سمعت المراء فاقصر * وقال من جعل دينه عرضاً للخصومات أكثر الثقل * وقال ان السابقين عن علم وقفوا وببصر نا قد كفوا وكانوا هم أقوى على البحث لو بحثوا * وكلام السلف فى هذا المعنى كثير جداً (١) *

(١) من ذلك ما نقل عن الامام مالك امام دار الهجرة قال موسى بن داود ما رأيت أحدا من العلماء أكثر من أن يقول لا أحسن من مالك.وقال مالك رضي الله عنه ما شيء أشد على من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام لان هذا هو القطع في حكم الله ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا وان أحدهم اذا سئل عن مسألة كأن الموت أشرف عليه.وقال رضي الله عنه ربما وردت على المسأله تمنعني من الطعام والشراب والنوم فقيل له ياأبا عبد

وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا فظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه فى مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك . وهذا جهل محض . وانظر الى أكابر الصحابة وعلمائهم كأبي بكر وعمر وعلى ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت كيف كانوا . كلامهم أقل من كلام ابن عباس وهم أعلم منه * وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة والصحابة أعلم منهم * وكذلك تابعوا التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين والتابعون أعلم منهم . فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال ولكنه نور يقذف فى القلب يفهم به العبد الحق ويميز به بينه وبين الباطل ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد*

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً ولهذا ورد النهي « عن كثرة الكلام والتوسع

الله والله ما كلامك عند الناس الا نقر في حجر ما تقول شيئا الا تلقوه منك قال فمن أحق أن يكون هكذا . وكان اذا سئل عن المسألة قال للسائل انصرف حتى أنظر فيها فينصرف ويردد فيها فقيل له في ذلك فبكى وقال انى أخاف أن يكون لى من المسائل يوم وأي يوم . وكان رضى الله عنه اذا جلس نكس رأسه وحرك شفتيه بذكر الله ولم يلتفت يمينا ولا شمالا واذا سئل عن مسألة تغير لونه وكان أحمر فيصفر وينكس رأسه ويحرك شفتيه ثم يقول ماشاء الله لاحول ولا قوة الا بالله فربما سئل عن خمسين مسألة فلا يجيب منها في واحدة وسئل في العراق عن اربعين مسألة فما اجاب منها الا في خمس . وسئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها لاأدري وكان اذا شك في الحديث طرحه كله وقال انما انا بشر أخطيء واصيب فانظروا رأيى فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وكل ما لم يوافق ذلك فاتركوه . وقال ليس كل ما قال الرجل وان كان فاضلا يتبع ويجعل سنة ويذهب به الى

فى القيل والقال [١] » * وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله لم يبعث نبياً الا مبلغاً وان تشقيق الكلام من الشيطان » يعنى ان النبي انما يتكلم بما يحصل به البلاغ . وأما كثرة القول وتشقيق الكلام فانه مذموم . وكانت خطب النبي صلى الله عليه وسلم قصداً . وكان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه « وقال ان من البيان سحراً » وانما قاله فى ذم ذلك لا مدحاً له كما ظن ذلك من ظنه * ومن تأمل سياق ألفاظ الحديث قطع بذلك [٢] * وفى الترمذى وغيره عن عبد الله

الامصار قال الله تعالى (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وهذا باب واسع نقتصر منه على ماذكرناوبالله التوفيق *

(١) قد روي البخارى ومسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم . قال « ان الله حرم عليكم عقوق الامهات ووأد البنات ومنعاً وهات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال » وفي مسلم « كفى بالمرء اثماً أن يحدث بكل ماسمع » *

(٢) ووجهه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قاله على ما رواه البخاري وغيره حين وفد عليه الزبرقان بن بدر التميمى وعمرو بن الاهتم التميمي في وجوه قومهما وساداتهم وأسلما سنة تسع من الهجرة فقال الزبرقان يارسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب امنعهم من الظلم وآخذ لهم بحقوقهم وهذا يعلم ذلك يعنى بذلك عمراً . فقال عمرو : وانه لشديد العارضة . مانع لجانبه مطاع في أدانيه فقال الزبرقان والله يا رسول الله لقد علم مني غير ماقال وما منعه أن يتكلم الا الحسد فقال عمرو أنا أحسدك فوالله يارسول الله انه للئيم الخال ذمر المروءة ضيق العطن أحمق الوالد مضيع في العشيرة والله يا رسول الله لقد صدقت في الاولى وما كذبت فى الاخرى ولكنى رجل اذا رضيت قلت أحسن ما علمت واذا غضبت قلت أقبح ماوجدت فقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ان من البيان سحراً ان من البيان سحراً » وفي

ابن عمرو مرفوعاً « ان الله ليبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها » (١) وفى المغنى أحاديث كثيرة مرفوعة وموقوفة على عمر وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم من الصحابة * فيجب أن يعتقد انه ليس كل من كثر بسطة للقول وكلامه فى العلم كان أعلم ممن ليس كذلك *

وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون فى بعض من توسع فى القول من المتأخرين انه أعلم ممن تقدم . فمنهم من يظن في شخص انه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله . ومنهم من يقول هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين . وهذا يلزم منه ما قبله لان هؤلاء الفقهاء المشهورين المتبوعين أكثر قولا ممن كان قبلهم فاذا كان من بعدهم أعلم منهم لاتساع قوله كان أعلم ممن كان أقل منهم قولا بطريق الاولى . كالثورى والاوزاعي (٢) *

رواية « ان من البيان لسحراً » بلام التأكيد . قيل هذا ذم للبيان لان السحر تمويه فكأنه قيل ان من البيان ما يموه الباطل حتى يتشبه بالحق : قال صاحب الامثال وانما شبه بالسحر لحدة عمله في سامعه وسرعة قبول القلب له وهو مثل يضرب في استحسان المنطق وايراد الحجة البالغة وأول من نطق به النبي صلى الله عليه وآله وسلم والله أعلم *

(١) هو الذى يتشدق في الكلام ويفخم به لسانه ويلفه كما تلف البقرة الكلاء بلسانها لفاً . شبه ادارة لسانه في الفم حال التكلم تفاصحاً بما تفعل البقرة بلسانها وهذا محمول على ما اذا فعل ذلك تكلفاً وقصداً . وأما من يخطب ويفصح من غير تكلف فلا يدخل فيه والله أعلم *

(٢) هو شيخ الاسلام وحجة الانام أبو عمرو عبد الرحمن الدمشقى الحافظ

والليث .(١) وابن المبارك . وطبقتهم . وممن قبلهم من التابعين والصحابة أيضاً *

فان هؤلاء كلهم أقل كلاماً ممن جاء بعدهم وهذا تنقص عظيم بالسلف الصالح وإساءة ظن بهم ونسبته لهم الى الجهل وقصور العلم ولا حول ولا قوة الا بالله * ولقد صدق ابن مسعود في قوله في الصحابة انهم أبر

المتوفي سنة ١٥٧ قال اسماعيل بن عياش سمعت الناس يقولون سنة أربع ومائة الاوزاعي اليوم عالم الامة وقال الحزيني كان الاوزاعي اليوم أفضل أهل زمانه وقال الحكم الاوزاعي امام عصره عموماً وامام أهل الشام خصوصاً ولقد كان أهل الشام ثم أهل الاندلس على مذهب الاوزاعي مدة من الدهر الى أن في العارفون به ومناقبه لا تحصي وثناء الامة عليه يحتاج الى تأليف فمن البحر حدث ولا حرج . ومن كلامه . عليك بآثار السلف وان رفضك الناس واياك ورأى الرجال وان زخرفوه بالقول فان الامر ينجلي وأنت على طريق مستقيم . وقال اذا بلغك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث فاياك أن تقول بغيره فانه كان مبلغاً عن الله وكان يقول خمسة كان عليها الصحابة والتابعون . لزوم الجماعة . واتباع السنة . وعمارة المساجد . والتلاوة . والجهاد . وكان يقول : ويل للمتفقهين بعد العبادة والمستحلين الحرمات بالشبهات *

(١) هو الامام القدوة والحافظ الفقيه المجتهد المطلق شيخ الديار المصرية وعالمها ورئيسها أبو الحارث الليث بن سعد المتوفي سنة ١٧٥. روي عبد الملك ابن يحي بن بكير عن أبيه قال ما رأيت فيمن رأيت مثل الليث وما رأيت أحداً أكمل من الليث كان فقيه البلد عربي اللسان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الشعر والحديث حسن المذاكرة الى أن عد خمس عشرة خصلة ما رأيت مثله . وقال الشافعي الليث أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به وفي رواية عن الشافعي ضيعه قومه وفي أخري ضيعه أصحابه . وقال ابن أبي مريم مارأيت أحداً من خلق الله أفضل من الليث وما كانت خصلة يتقرب بها الى

الأمة قلوباً . وأعمقها علوماً . وأقلها تكلفاً * (١) وروي نحوه عن ابن عمر أيضاً . وفى هذا اشارة الى أن من بعدهم أقل علوماً وأكثر تكلفاً*

وقال ابن مسعود أيضاً انكم فى زمان كثير علماؤه قليل خطباؤه وسيأتى بعدكم زمان قليل علماؤه كثير خطباؤه فمن كثر علمه وقل قوله فهو الممدوح ومن كان بالعكس فهو مذموم . وقد شهد النبى ﷺ لأهل اليمن بالايمان والفقه . وأهل اليمن أقل الناس كلاماً وتوسعاً فى العلوم لكن علمهم علم نافع فى قلوبهم ويعبرون بألسنتهم عن القدر المحتاج اليه من ذلك . وهذا هو الفقه والعلم النافع * فأفضل العلوم فى تفسير القرآن

الله الا كانت تلك الخصلة فى الليث . وقال ابن حبان كان الليث من سادات أهل زمانه فقها وعلما وحفظاً وفضلا وكرما . وقال النووي في تهذيبه اجمعوا على جلالته وأمانته وعلو مرتبته في الفقه والحديث ومناقبه كثيرة جمع الحافظ ابن حجر جزأً في ترجمته وسماه الرحمة الغيثية وطبعناه وادرجناه في مجموعة الرسائل المنيرية فارجع اليه تجد مايدهش العقول *

(١) وهاك بعض ماورد في وصف الصحابة عن الائمة الاعلام * روى عن الحسن وقد ذكر اصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال انهم أبر هذه الامة قلوبا وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً قوما اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فتشبهوا باخلاقهم وطرائقهم فانهم ورب الكعبة على الصراط المستقيم * وعن حذيفة أنه كان يقول اتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من قبلكم فلعمري لئن اتبعتموه لقد سبقتم سبقاً بعيداً ولئن تركتموه يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيداً * وعن عمر بن عبد العزيز قال سن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وولاة الامر بعده سننا الاخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله من عمل بها مهتد ومن استنصر بها منصور ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا . وفي رواية عنه بعد قوله وقوة

ومعاني الحديث والكلام في الحلال والحرام ما كان مأثوراً عن الصحابة(١) والتابعين وتابعيهم الى أن ينتهي الى أئمة الاسلام المشهورين المقتدى بهم الذين سميناهم فيما سبق *

على دين الله ليس لاحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي خالفها من اهتدي بها الخ الحديث * وعن ابن مسعود قال من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فانهم كانوا أبر هذه الامة قلوبا وأعمقها علوماً وأقلها تكلفاً وأقومها هديا وأحسنها حالا قوما اختارهم الله لصحبة نبيه واقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم فانهم كانوا على الهدي المستقيم *

(١) لان عملهم سنة يقتدي بها ويرجع اليها قال الشاطبي في كتابه الموافقات سنة الصحابة رضى الله عنهم سنة يعمل عليها ويرجع اليها ومن الدليل على ذلك أمور

(أحدها) ثناء الله عليهم من غير مثنوية (أي استثناء) ومدحهم بالعدالة وما يرجع اليها كقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وقوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) ففي الاولى اثبات الافضلية على سائر الامم وذلك يقضي باستقامتهم في كل حال وجريان احوالهم على الموافقة دون المخالفة : وفي الثانية اثبات العدالة مطلقاً وذلك يدل على مادلت عليه الاولى *

(الثاني) ماجاء في الحديث من الامر باتباعهم وان سنتهم في طلب الاتباع كسنة النبي صلي الله عليه وآله وسلم كقوله « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » وقوله « تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار الا واحدة قالوا ومن هم يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي »

(الثالث) أن جمهور العلماء قدموا الصحابة عند ترجيح الاقوال فقد جعل طائفة قول أبي بكر وعمر حجة ودليلا وبعضهم عد قول الخلفاء الاربعة دليلا وبعضهم يعد قول الصحابة على الاطلاق حجة ودليلا وهذه الآراء وان ترجح عند العلماء خلافها ففيها تقوية تضاف الى أمر كلي هو المعتمد في المسألة وذلك

فضبط ماروى عنه في ذلك أفضل العلوم مع تفهمه وتعقله والتفقه فيه وما حدث بعدهم من التوسع لاخير فى كثير منه إلا أن يكون شرحاً لكلام يتعلق من كلامهم وأما ما كان مخالفاً لكلامهم فأكثره باطل أو لامنفعة فيه . وفى كلامهم فى ذلك كفاية وزيادة فلا يوجد فى كلام من بعدهم من حق إلا وهو فى كلامهم موجود بأوجز لفظ وأخصر عبارة ولا يوجد فى كلام من بعدهم من باطل إلا وفى كلامهم ما يبين بطلانه لمن فهمه وتأمله ويوجد فى كلامهم من المعانى البديعة والمآخذ الدقيقة مالا يهتدى اليه من بعدهم ولا يلم به *

فمن لم يأخذ العلم من كلامهم فاته ذلك الخير كله مع مايقع فى كثير من الباطل متابعة لمن تأخر عنهم . ويحتاج من أراد جمع كلامهم الى معرفة صحيحه من سقيمه وذلك بمعرفة الجرح والتعديل والعلل فمن لم يعرف ذلك

أن السلف والخلف من التابعين ومن بعدهم يهابون مخالفة الصحابة ويتكثرون بموافقتهم وأكثر ماتجد هذا المعنى في علوم الخلاف الدائر بين الائمة المعتبرين فتجدهم اذا عينوا مذاهبهم قووها بذكر من ذهب اليها من الصحابة وماذاك الا لما اعتقدوا في أنفسهم وفي مخالفيهم من تعظيمهم وقوة مآخذهم دون غيرهم وكبر شأنهم في الشريعة وانهم مما يجب متابعتهم وتقليدهم فضلا عن النظر معهم فيما نظروا فيه . وقد نقل عن الشافعي ان المجتهد قبل أن يجتهد لا يمنع من تقليد الصحابة ويمنع في غيره

(الرابع) ما جاء فى الاحاديث من ايجاب محبتهم . وذم من بغضهم وان من أحبهم فقد أحب النبى صلى الله عليه وآله وسلم . ومن أبغضهم فقد أبغض النبى عليه الصلاة والسلام وما ذاك من جهة كونهم رأوه أوجاوروه أوحاوروه فقط اذ لا مزية في ذلك وإنما هو لشدة متابعتهم له وأخذهم أنفسهم بالعمل على سنته مع حمايته ونصرته . ومن كان بهذه المثابة حقيق أن يتخذ قدوة ويجعل سيرته قبلة انتهى المقصود منه ببعض تصرف .

فهو غير واثق بما ينقله (١) من ذلك ويلتبس عليه حقه بباطله . ولا يثق بما عنده من ذلك كما يرى من قل علمه بذلك لايثق بما يروى عن النبي ﷺ ولا عن السلف لجهله بصحيحه من سقيمه فهو لجهله يجوز أن يكون كله باطلا لعدم معرفته بما يعرف به صحيح ذلك وسقيمه *

قال الأوزاعي العلم ما جاء به أصحاب محمد ﷺ فما كان غير ذلك فليس بعلم : وكذا قال الامام احمد :وقال فى التابعين أنت مخير يعنى مخيرا فى كتابته وتركه : وقد كان الزهرى يكتب ذلك وخالفه صالح بن كيسان ثم ندم على تركه كلام التابعين *

وفى زماننا يتعين كتابة كلام أئمة السلف المقتدى بهم الى زمن

---

(١) وأيضاً غير موثوق به لانه حكم على الشيء وقضاء فيه ولا يصح إلا بعد تصور المحكوم عليه والاحاطة بلوازمه الخاصة به . ومن كان هكذا فلا يعتد بحكمه ولذلك لا يجوز أن يسئل عن شيء في أحكام الدين فانه لا ثقة به ولا اعتبار بجوابه في الشريعة المطهرة * قال العلامة أبو اسحاق لا يصح للسائل أن يسأل من لا يعتبر فى الشريعة جوابه لانه اسناد أمر الى غير أهله والاجماع على عدم صحة مثل هذا بل لا يمكن فى الواقع لان السائل يقول لمن ليس بأهل لما سئل عنه اخبرنى عما لا تدرى وأنا أسند أمرى لك فيما نحن بالجهل به على سواء ومثل هذا لا يدخل فى زمرة العقلاء اذ لو قال له دلنى فى هذه المفازة على الطريق الى الموضع الفلاني وقد علم أنهما فى الجهل بالطريق سواء لعد فى زمرة المجانين فالطريق الشرعي أولى لانه هلاك أخروى وذلك هلاك دنيوى خاصة . هدانا الله وإياك الى تصور الاحكام على حقيقتها والاحاطة بكنهها .

الشافعي وأحمد واسحاق وأبي عبيد : وليكن الانسان على حذر مما حدث بعدهم فانه حدث بعدهم حوادث كثيرة وحدث من انتسب الى متابعة السنة والحديث من الظاهرية ونحوهم وهو أشد مخالفة لها لشذوذه عن الأئمة وانفراده عنهم بفهم يفهمه أو يأخذ مالم يأخذ به الأئمة من قبله *

فأما الدخول مع ذلك فى كلام المتكلمين أو الفلاسفة فشر محض وقل من دخل فى شيء من ذلك إلا وتلطخ ببعض أوضارهم كما قال أحمد لايخلو من نظر فى الكلام من ان يتجهم : وكان هو وغيره من أئمة السلف يحذرون من أهل الكلام (١) وان ذبوا عن السنة . وأما مايوجد فى

---

(١) قال الحافظ ابن الجوزي في كتابه تلبيس ابليس وكيف لايذم الكلام وقد أفضى الى أنهم قالوا ان الله عز وجل يعلم جمل الأشياء ولايعلم تفاصيلها وقال جهم بن صفوان علم الله وقدرته وحياته محدثة. وقال أبو محمد النوبختي عن جهم أنه قال الله عز وجل ليس بشيء وقال أبو على الجبائي وأبو هاشم ومن تابعهما من البصريين المعدوم شيء وذات ونفس وجوهر وعرض : وقد اطنب في ذلك ونقل معتقداتهم فارجع اليه . ولذلك ذم علماء السنة علم الكلام وبالغوا في التنفير عنه . قال الشافعي رضي الله عنه لان يبتلى العبد بكل مانهى الله عنه ماعدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام . وقال اذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أوغير المسمى فاشهد أنه من أهل الكلام ولادين له : وقال أيضا وحكمي في علماء الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام. ولذلك قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله لايفلح صاحب كلام أبداً علماء الكلام زنادقة : ولا تجد متكلما الا ورجع آخر عمره عن علم الكلام وتاب وندم ونهى عن الاشتغال به . كان الوليد بن ابان الكرابيسي أعلم أهل زمانه في علم الكلام ومباحثه فلماحضرته الوفاة قال لبنيه تعلمون أحدا أعلم بالكلام مني قالوا لا قال فتتهموني قالوا لا قال فاني أوصيكم أتقبلون قالوا نعم قال عليكم

كلام من أحب الكلام المحدث واتبع أهله من ذم من لايتوسع فى الخصومات والجدال ونسبته الى الجهل أو الى الحشو أو الى أنه غيرعارف بالله أو غير عارف بدينه فكل ذلك من خطوات الشيطان نعوذبالله منه *

ومما أحدث من العلوم الكلام فى العلوم الباطنة (١) من المعارف

بما عليه أصحاب الحديث فانى رأيت الحق معهم . وهذا امام الحرمين أبو المعالي الجويني الشافعي امام عصره كان يقول جلت أهل الاسلام جولة في علومهم . وركبت البحر الاعظم وغصت في الذي نهوا عنه كل ذلك في طلب الحق وهرباً من التقليد وأما الآن فقد رجعت عن الكل الى كلمة الحق عليكم بدين العجائز فان لم يدركني الحق بلطيف بره فأموت على دين العجائز ويختم عاقبة امرى عند الرحيل بكلمة الاخلاص فالويل لابن الجويني . وكان يقول لاصحابه ياأصحابنا لاتشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي مابلغ ماتشاغلت به . وللامام فخر الدين الرازي ولغيره كلام كثير في ذم علم الكلام وأهله أعرضنا عنه لضيق المقام . تنبيه والله المستعان *

(١) وحاصل ماذكره الحافظ ابن الجوزي أن ابليس لبس على أقوام حتى صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في ظلمات الجهل . فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا مايصلح أبدانهم ونسوا أنه خلق المصالح وبالغوا فى الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لايضطجع وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع اليه من الاحاديث الموضوعة وهو لايدري ثم جاء أقوام فتكلموا في الجوع والفقر والوساوس والخطرات وصنفوا في ذلك وجاء آخرون فهذبوه وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالسماع والوجد والرقص والتصفيق ثم مازال الامر ينمو والاشياخ يضعون لهم أوضاعا ويتكلمون بواقعاتهم حتى سموه العلم الباطني وجعلوا علم الشريعة علم الظاهر ومازال ابليس يخيط بهم بفنون البدع حتى جعلوا لانفسهم سننا . أعاذنا الله منه *

وأعمال القلوب وتوابع ذلك بمجرد الرأى والذوق أو الكشف وفيه خطر عظيم : وقد أنكره أعيان الأئمة كالامام احمد وغيره : وكان أبو سليمان يقول انه لتمر بى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها الا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة *

وقال الجنيد علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فى علمنا هذا : وقد اتسع الخرق فى هذا الباب ودخل فيه قوم الى أنواع الزندقة والنفاق ودعوى ان أولياء الله أفضل من الانبياء . أو انهم مستغنون عنهم والى التنقص بما جاءت به الرسل من الشرائع : والى دعوى الحلول والاتحاد أو القول بوحدة الوجود . وغير ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان كدعوى الاباحة . وحل محظورات الشرائع . وأدخلوا فى هذا الطريق أشياء كثيرة ليست من الدين فى شيء . فبعضها زعموا انه يحصل به ترقيق القلوب كالغناء والرقص . (١) وبعضها زعموا انه يراد لرياضة النفوس لعشق

(١) قال الحافظ ابن الجوزى ولما يئس ابليس أن يسمع من المتعبدين شيئاً من الاصوات المحرمة كالعود نظر الى المعنى الحاصل بالعود فدرجه فى ضمن الغناء بغير العود وحسنه لهم وإنما مراده التدريج من شيء الى شيء والفقيه من نظر فى الأسباب والنتائج وتأمل المقاصد *

واعلم أن سماع الغناء يجمع شيئين : أحدهما أنه يلهى القلب عن التفكر فى عظمة الله سبحانه والقيام بخدمته . والثاني أنه يميل الى اللذات العاجلة التى تدعو الى استيفائها من جميع الشهوات الحسية ومعظمها النكاح وليس تمام لذته إلا فى المتجددات ولا سبيل الى كثرة المتجددات فى الحل فلذلك يحث على الزنا فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح والزنا اكبر لذات النفس . ولهذا جاء فى الحديث « الغناء رقية الزنا » قلت وهو أثر لا نه من قول عبد الله بن مسعود *

الصور المحرمة ونظرها . وبعضها زعموا انه لكسر النفوس والتواضع كشهرة اللباس وغير ذلك مما لم تأت به الشريعة . وبعضه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة كالغناء والنظر الى المحرم . وشابهوا بذلك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً *

فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها والتقيد فى ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معانى القرآن والحديث . وفيما ورد عنهم من الكلام فى مسائل الحلال والحرام . والزهد . والرقائق . والمعارف . وغير ذلك والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولا . ثم الاجتهاد على الوقوف فى معانيه وتفهمه ثانيا . وفى ذلك كفاية لمن عقل . وشغل لمن بالعلم النافع عنى واشتغل *

ومن وقف على هذا وأخلص القصد فيه لوجه الله عز وجل واستعان عليه أعانه وهداه ووفقه وسدده وفهمه وألهمه . وحينئذ يثمر له هذا العلم ثمرته الخاصة به وهى خشية الله كما قال عز وجل (انما يخشى الله من عباده العلماء) قال ابن مسعود وغيره كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا * وقال بعض السلف ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية * وقال بعضهم من خشى الله فهو عالم ومن عصاه فهو جاهل * وكلامهم فى هذا المعنى كثير جداً (١) *

---

(١) من ذلك ماروي عن ابن مسعود انى لاحسب الرجل ينسى العلم بالخطيئة يعملها وان العالم من يخشى الله وتلا قوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) وعن أبي بن كعب . قال تعلموا العلم واعملوا به ولا تتعلموه لتتجملوا به فانه

وسبب ذلك ان هـذا العلم النافع يدل على أمرين * أحدهما على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة . وذلك يستلزم اجلاله واعظامه وخشيته ومهابته ومحبته ورجاءه والتوكل عليه والرضى بقضائه والصبر على بلائه * والامر الثانى المعرفة بما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال

يوشك ان طال بكم زمان أن يتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه . وقال الحسن الذى يفوق الناس في العلم جدير ان يفوقهم في العمل . وقال فضيل بن عياض قال لي ابن المبارك أكثركم علما ينبغي أن يكون أكثركم خوفا . وقال أيوب السختياني قال لى أبو قلابة يا أيوب اذا أحدث الله لك علما فأحدث له عبادة ولا يكن همك أن تحدث به وقال ابن وهب عن مالك أنه سمعه يقول ان حقا على من طلب الحديث أن يكون له وقار وسكينة وخشية وان يكون متبعا لآثار من مضى قبله . وفى الباب من هذا كثير لان العلوم الشرعية إنما طلبها الشارع من حيث هى وسيلة الى التعبد بها لله تعالى لا من جهة أخرى والدليل على ذلك من وجوه : أحدها ان المسائل التى لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعى لذلك أعرض الشارع عما قصده السائل من السؤال عن الهلال لم يبدو رقيقاً فى أول الشهر كالخيط ثم يمتلىء حتى يصير بدراً ثم يعود الى حالته الأولى مما لا يفيد عملا مكلفاً به وبين أن السؤال إنما يكون فيما يترتب عليه فائدة عمل فقال (يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج) ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم للسائل عن الساعة « ما أعددت لهـا » اعراضاً عن صريح سؤاله الى ما يتعلق بها مما فيه فائدة ولم يجبه عما سأل عنـه . ثانيها أن الشرع إنما جاء بالتعبد لانه المقصود من بعثة الانبياء عليهم الصلاة والسلام يدل له قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم) وقوله تعالى (كتاب أنزلناه إليـك لتخرج الناس من الظلمات الى النور) وقوله (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) . ثالثها ما جاء من الآيات والأحاديث الدالة على أن روح العلم هو العمل وإلا فالعلم غير منتفع به وعارية . من ذلك قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم

الظاهرة والباطنة والأقوال فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة الى ما فيه محبة الله ورضاه والتباعد عما يكرهه ويسخطه : فاذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع فمتى كان العلم نافعاً ووقر فى القلب فقد خشع القلب لله وانكسر له . وذل هيبة واجلالا وخشية ومحبة وتعظيما . ومتى خشع القلب لله وذل وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا وشبعت به فأوجب لها ذلك القناعة والزهد فى الدنيا . وكل ما هو فان لا يبقى من المال والجاه وفضول العيش الذى ينقص به حظ صاحبه عند الله من نعيم الآخرة وان كان كريماً على الله * كما قال ذلك ابن عمر وغيره من السلف وروى مرفوعا . وأوجب ذلك أن يكون بين العبد وبين ربه عز وجل معرفة خاصة . فان سأله أعطاه وان دعاه أجابه كما قال فى الحديث الالهى « ولا يزال عبدى يتقرب الىّ بالنوافل حتى أحبه الى قوله فلئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه »(١) وفى

وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) وقوله تعالى (وانه لذو علم لما علمناه) قال قتادة يعنى لذو عمل بما علمناه وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسئل عن خمس خصال وذكر فيها وعن علمه ماذا عمل فيه » *

وقال سفيان الثورى إنما يتعلم العلم ليتقى به الله ، وإنما فضل العلم على غيره لانه يتقى الله به . وغير ذلك مما لا يسعه المقام والله أعلم *

(١) والحديث رواه البخارى عن أبي هريرة بلفظ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قال من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الى عبدي بشيء أحب الى مما افترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتي أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وان سألني لاعطينه ولئن استعاذ بي

رواية « ولئن دعاني لأجيبنه » * وفي وصيته صلى الله عليه وسلم لابن عباس « احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة »*

لاعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره اساءته »

قال الحافظ ابن رجب في شرح خمسين حديثاً وقد روي هذا الحديث من وجوه أخر لا تخلو كلها عن مقال

قال المؤلف والمراد من هذا أن من اجتهد بالتقرب الى الله تعالى بالفرائض أولا ثم بالنوافل ثانياً قربه اليه ورقاه من درجة الايمان الى درجة الاحسان فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كانه يراه فيمتلىء قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته واجلاله والانس به والشوق اليه حتى يصير هذا الذي في قلبه في المعرفة مشاهداً له بعين البصيرة كما قيل

ساكن في القلب يعمره * لست أنساه فاذكره
غاب عن سمعي وعن بصري * فسويدا القلب تبصره

قال الفضيل بن عياض ان الله تعالى يقول كذب من ادعى محبتي ونام عني أليس كل محب يحب خلوة محبوبه ها أنا مطلع على أحبابي وقد مثلوني بين أعينهم وخاطبوني على المشاهدة وكلموني بحضور غداً اقر أعينهم في جناتي . ولا يزال هذا الذي في قلوب المحبين المقربين يقوى حتى تمتلىء قلوبهم به فلا يبقى في قلوبهم غيره ولا تستطيع جوارحهم أن تنبعث الا بموافقة ما في قلوبهم ومن كان حاله هذا قل فيه ما بقي في قلبه الا الله . والمراد معرفته ومحبته وذكره فحينئذ لا ينطق العبد الا بذكره ولا يتحرك الا بأمره ولا يعمل الا بالسنة ولا يشتغل الا بعلم الكتاب والحديث فان نطق نطق بالله وان سمع سمع به وان نظر نظر به وان بطش بطش به فهذا هو المراد بقوله كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به . ومن أشار الى غير هذا فانما يشير الى الالحاد من الحلول والاتحاد . والله ورسوله بريئان منه . وقوله ولئن سالني لاعطينه الخ يعني أن هـذا المحبوب المقرب له عند الله منزلة خاصة تقتضي انه اذا سأل الله شيئاً

فالشأن فى أن العبد يكون بينه وبين ربه معرفة خاصة بقلبه بحيث يجده قريبا منه يستأنس به فى خلوته ويجد حلاوة ذكره ودعائه ومناجاته وخدمته . ولا يجد ذلك الا من أطاعه فى سره وعلانيته . كما قيل لوهيب بن الورد يجد حلاوة الطاعة من عصى قال لا ولا من هم . ومتى وجد العبد هذا فقد عرف ربه وصار بينه وبينه معرفة خاصة . فاذا سأله أعطاه . واذا دعاه أجابه كما قالت شعوانة لفضيل *

والعبد لا يزال يقع فى شدائد وكرب فى الدنيا . وفى البرزخ وفى الموقف فاذا كان بينه وبين ربه معرفة خاصة كفاه الله ذلك كله وهذا هو المشار اليه فى وصية ابن عباس بقوله صلى الله عليه وسلم « تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » وقيل لمعروف ما الذى هيجك الى الانقطاع ودكر له الموت والقبر والموقف والجنة والنار . فقال ان ملكا هذا كله بيده كانت بينك وبينه معرفة كفاك هذا كله . فالعلم النافع ما عرف بين العبد وربه ودل عليه حتى عرف ربه ووحده وأنس به واستحى من قربه . وعبده كانه يراه *

ولهذا قالت طائفة من الصحابة إن أول علم يرفع من الناس الخشوع * وقال ابن مسعود إن أقواما يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن اذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع * وقال الحسن العلم علمان فعلم على اللسان

أعطاه اياه واذا استعاذ به من شيء أعاذه منه وان دعاه أجابه فيصير مجاب الدعوة لكرامته على الله تعالى . ولذلك كان كثير من السلف معروفاً باجابة الدعوة منهم البراء بن مالك . والنعمان بن نوفل وأويس القرنى وغيرهم نفعنا الله بهم وهدانا للعلم والعمل*

فذاك حجة الله على ابن آدم . وعلم في القلب فذاك العلم النافع * وكان السلف يقولون ان العلماء ثلاثة . عالم بالله عالم بأمر الله . وعالم بالله ليس بعالم بأمره . وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله وأكملهم الأول وهو الذى يخشى الله ويعرف أحكامه*

فالشأن كله فى أن العبد يستدل بالعلم على ربه فيعرفه فاذا عرف ربه فقد وجده منه قريباً(١) ومتى وجده منه قريباً قربه اليه وأجاب دعاءه كما فى الأثر الاسرائيلى « ابن آدم اطلبنى تجدنى فان وجدتنى وجدت كل شىء وان فتك فاتك كل شىء وأنا أحب اليك من كل شىء » وكان ذو النون يردد هذه الأبيات بالليل

اطلبوا لأنفسكم مثل ماوجدت أنا
قد وجدت لى سكناً ليس فى هواه عنا
ان بعدت قربنى أو قربت منه دنا

وكان الامام أحمد رحمه الله يقول عن معروف معه (٢) أصل العلم

---

(١) لأن السالك الى ربه لاتزال همته عاكفة على استفراغ القلب في صدق الحب .وبذل الجهد في امتثال الامر الناشئين عن المعرفة فلايزال كذلك حتى تبدو على سره شواهد معرفته وآثار صفاته وأسمائه . ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد حتى تستقر وينصبغ بها قلبه حتى تحصل له منزلة قوله تعالى في الحديث القدسي « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذي يبصر به» فعلى طالب الآخرة ان يشد مئزر الجد في طلب محبة حبيبه له بانواع التقرب اليه. فيشغل لسانه بالذكر وتلاوة كلام حبيبه . وقلبه بالخوف والرجاء . والانابة والتوكل . وجوارحه بالطاعات*

(٢) هكذا الاصل ولا معنى لوجود لفظ معه ولعله أثبته الناسخ سهواً

خشية الله : فأصل العلم العلم بالله الذى يوجب خشيته ومحبته والقرب منه والأنس به والشوق اليه . ثم يتلوه العلم بأحكام الله وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد : فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه علماً نافعاً وحصل له العلم النافع والقلب الخاشع والنفس القانعة والدعاء المسموع *

ومن فاته هذا العلم النافع وقع فى الأربع التى استعاذ منها النبى ﷺ وصار علمه وبالا وحجة عليه فلم ينتفع به لأنه لم يخشع قلبه لربه . ولم تشبع نفسه من الدنيا بل ازداد عليها حرصاً ولها طلباً . ولم يسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر ربه . وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه*

هذا ان كان علمه علماً يمكن الانتفاع به وهو المتلقى عن الكتاب والسنة . فان كان متلقى من غير ذلك فهو غير نافع فى نفسه ولا يمكن الانتفاع به بل ضره أكثر من نفعه . وعلامة هذا العلم الذى لاينفع أن يكسب صاحبه الزهو والفخر والخيلاء وطلب العلو والرفعة فى الدنيا . والمنافسة فيها . وطلب مباهاة العلماء ومماراة السفهاء وصرف وجوه الناس اليه * وقد ورد عن النبى ﷺ « ان من طلب العلم لذلك فالنار النار » (١) وربما ادعى بعض أصحاب هذه العلوم معرفة الله وطلبه

(١) هذا الحديث رواه الحافظ أبو عمر ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله عن جابر رضى الله عنه بلفظ قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحتازوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار » وفى الباب أحاديث كثيرة. منها مارواه الحافظ ابن عبد البر أيضاً عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنزل الله في بعض الكتب أو أوحي الى بعض الانبياء قل للذين

والاعراض عما سواه وليس غرضهم بذلك الا طلب التقدم فى قلوب الناس من الملوك وغيرهم واحسان ظنهم بهم وكثرة اتباعهم . والتعظم بذلك على الناس *

وعلامة ذلك اظهار دعوى الولاية كما كان يدعيه أهل الكتاب . وكما ادعاه القرامطة والباطنية ونحوهم . وهذا بخلاف ما كان عليه السلف من احتقار نفوسهم وازدرائها باطناً وظاهراً * وقال عمرو من قال انه عالم فهو جاهل ومن قال انه مؤمن فهو كافر ومن قال هو فى الجنة فهو فى النار *

ومن علامات ذلك عدم قبول الحق والانقياد اليه والتكبر

يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلي من العسل وقلوبهم أمر من الصبر اياي يخادعون وبي يستهزئون لا تيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيرانا . ومن كلام السلف في ذلك ما روى عن الاسود عن عبد الله بن مسعود أنه قال لو أن أهل العلم صانوا علمهم ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم ولكنهم بذلوه لاهل الدنيا لينالوا به من دنياهم فهانوا علي أهلها سمعت نبيكم صلي الله عليه وآله وسلم يقول من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم آخرته ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا لم يبال الله في أى أوديتها وقع . وعن يزيد بن قودر قال يوشك أن نري رجالا يطلبون العلم فيتغايرون عليه كما يتغاير الفساق علي المرأة هو حظهم منه وعن سيار عن عائذ الله قال الذي يبتغي الاحاديث ليحدث بها لا يجد ريح الجنة . وقال مكحول من طلب الحديث ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس فهو في النار : وقال سفيان الثوري زين علمك بنفسك ولا تزين نفسك بعلمك والله أعلم *

على من يقول الحق خصوصاً ان كان دونهم في أعين الناس . والاصرار على الباطل خشية تفرق قلوب الناس عنهم باظهار الرجوع الى الحق وربما أظهروا بألسنتهم ذم أنفسهم واحتقارها على رؤوس الاشهاد ليعتقد الناس فيهم انهم عند أنفسهم متواضعون فيمدحون بذلك وهو من دقائق أبواب الرياء كما نبه عليه التابعون فمن بعدهم من العلماء ويظهر منهم من قبول المدح واستجلابه مما ينافي الصدق والاخلاص فان الصادق يخاف النفاق على نفسه ويخشى على نفسه من سوء الخاتمة فهو في شغل شاغل عن قبول المدح واستحسانه (١) *

(١) قال العلامة شهاب الدين المعروف بابن أبي شامة كان العلماء من السلف الصالح أهل نسك وعبادة وورع وزهادة . أرضوا الله تعالى بعلمهم وصانوا العلم فصانهم . وتدرعوا من الاعمال الصالحة بما زانهم ولم يشنهم الحرص علي الدنيا وخدمة أهلها بل أقبلوا على طاعة الله التي خلقوا لاجلها فأولئك هم الذين عناهم الشافعي بقوله ما أحد أرعي لحقه من الفقهاء وفي رواية انلم يكن الفقهاء أولياء الله في الآخرة فما لله ولي . قال ابن عباس لو أن العلماء أخذوا العلم بحقه لاحبهم الله والملائكة والصالحون من عباده ولهابهم الناس لفضل العلم وشرفه وكانت الفقهاء فيما خلا يحملون العلم فيحسنون حمله فاحتاجت اليهم الملوك وأهل الدنيا ورغبوا في علمهم فلما كان بأخرة كثرت العلماء فحملوا العلم فلم يحسنوا حمله فطرحوا علمهم علي الملوك وأهل الدنيا فاهتضموهم واحتقروهم . قال وهب بن منبه كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم فكانوا لا يلتفتون الى دنياهم وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم في علمهم فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لاهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم وأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم . فانظر أيها العاقل الى كلام هذا الامام وبيننا وبينه قرون عديدة من الزمن فما بالك بزماننا الآن اللهم جنبنا طريقة قوم لم

فلهذا كان من علامات أهل العلم النافع انهم لا يرون لأنفسهم حالا ولا مقاما ويكرهون بقلوبهم التزكية والمدح ولا يتكبرون على أحد * قال الحسن انما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة البصير بدينه المواظب على عبادة ربه * وفى رواية عنه قال الذى لا يحسد من فوقه ولا يسخر ممن دونه ولا يأخذ على علم علمه الله أجراً * وهذا الكلام الأخير قد روى معناه عن ابن عمر من قوله وأهل العلم النافع كلما ازدادوا فى هذا العلم ازدادوا تواضعاً لله وخشيةوانكساراً وذلا *

قال بعض السلف ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه (١) تواضعاً لربه فانه كلما ازداد علماً بربه ومعرفة به ازداد منه خشية ومحبة وازداد له ذلا وانكساراً * ومن علامات العلم النافع انه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا وأعظمها الرئاسة والشهرة والمدح فالتباعدعن ذلك والاجتهاد فى مجانبتـه من علامات العلم النافع . فاذا وقع شيء من ذلك من غير

يقوموا بحق العلم وأرادوا به الدنيا وأعرضوا عما لهم في الآخرة من الدرجات العلى فلم يهنئوا بحلاوته. ولم يتمتعوا بنضارته بل خلقت عندهم ديباجته ورثت حاله . واجعلنا ممن عرف مقداره من السلف والتابعين وتابعيهم فأنهم أعطوا العلم فعظموه وبجلوه ووقروه. واستغنوا به ورأوه بعد المعرفة أفضل ما أعطى البشر واحتقروا فى جنبه كل مفتخر وتمسكوا بقوله تعالى (فما آتاني الله خير مما آتاكم) وكيف لا يكون عملهم كذلك والعلم حياة والجهل موت فبينهما كما بين الحياة والموت وما أحسن قول الشاعر *

وفى الجهل قبل الموت موت لاهله * وأجسامهم قبل القبور قبور
وان امرأ لم يحيى بالعلم ميت * وليس له حتى النشور نشور

(١) هـذا كناية عن كمال التواضع ونهاية الخشوع والانكسار لله جل وعلا وإلا فوضع التراب على الرأس حقيقة غير مشروع .

قصد واختيار كان صاحبه فى خوف شديد من عاقبته بحيث أنه يخشى أن يكون مكراً واستدراجاً كما كان الامام أحمد يخاف ذلك على نفسه عند اشتهار اسمه وبعد صيته *

ومن علامات العلم النافع ان صاحبه لايدعى العلم ولا يفخر به على أحد ولا ينسب غيره الى الجهل إلا من خالف السنة وأهلها فانه يتكلم فيه غضباً لله لاغضباً لنفسه ولا قصداً لرفعتها على أحد *

وأما من علمه غير نافع فليس له شغل سوى التكبر بعلمه على الناس (١) واظهار فضل علمه عليهم ونسبتهم الى الجهل وتنقصهم ليرتفع بذلك عليهم وهذا من أقبح الخصال وأرداها *

---

(١) وما طرأ ذلك عليهم إلا من اعراضهم عن الاشتغال بعلوم الكتاب والسنة وأخذهم بالرأي وتتبع التقاليد والتعصب لها . وقد تفاقم الأمر حتى صار كثير من الناس لا يرون الاشتغال بعلوم القرآن والحديث ويرون أن ماهم عليه هو الذى ينبغى عليه المواظبة فبدلوا بالطيب خبيثاً وبالحق باطلا واشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . ولو نظروا الى كلام السلف فى ذلك وعملهم واقتدوا بهم لنجحوا وارتفعوا الى أعلى عليين واستغنوا بعلمهم عن أبناء الدنيا ودور الامراء والسلاطين وهاك بعض كلام العلماء العاملين في ذلك . روى الشعبي عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : اياكم وأصحاب الرأى فانهم أعداء السنن أعيتهم الاحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا . وقال أيضا اذا جاءك الخبر عن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فضعه على رأسك . واذا جاءك عن التابعين فاضرب به أقفيتهم . وقال عمر بن الخطاب اتهموا الرأي على الدين . وقال عبد الله بن مسعود : يحدث قوم يقيسون الامور برأيهم فيهدم الاسلام . وللسلف فى ذلك كلام كثير رضي الله عنهم : وما أحسن

وربما نسب من كان قبله من العلماء الى الجهل والغفلة والسهو فيوجب له حب نفسه وحب ظهورها احسان ظنه بها واساءة ظنه بمن سلف * وأهل العلم النافع على ضد هذا يسيؤون الظن بأنفسهم ويحسنون الظن بمن سلف من العلماء ويقرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل من سلف عليهم وبعجزهم عن بلوغ مراتبهم والوصول اليها أو مقاربتها * وما أحسن قول أبي حنيفة وقد سئل عن علقمة والاسود أيهما أفضل . فقال والله ما نحن بأهل أن نذكرهم فكيف نفضل بينهم * وكان ابن المبارك اذا ذكر أخلاق من سلف ينشد

لاتعرض بذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيح اذا مشى كالمقعد

ومن علمه غير نافع اذا رأى لنفسه فضلا على من تقدمه في المقال وتشقق الكلام ظن لنفسه عليهم فضلا في العلوم أو الدرجة عند الله لفضل خص به عمن سبق فاحتقر من تقدمه واجترأ عليه بقلة العلم ولا يعلم المسكين ان قلة كلام من سلف انما كان ورعا وخشية لله ولو أراد الكلام واطالته لما عجز عن ذلك . كما قال ابن عباس لقوم سمعهم يتمارون في الدين أما علمتم ان لله عباداً أسكتهم خشية الله من غير عي

قول الشاعر حيث قال

تجنب ركوب الرأي فالرأي ريبة عليك بآثار النبي محمد
فمن يركب الآراء يعم عن الهدى ومن يتبع الاثار يهد ويحمد

وقال بعضهم في ذلك

انظر بعين الهدي ان كنت ذا نظر فانما العلم مبني على الاثر
لا ترض غير رسول الله متبعا ما دمت تقدر في حكم على خبر

ولا بكم . وأنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء العلماء بأيام الله غير انهم اذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم حتى اذا استفاقوا من ذلك يسارعون الى الله بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم من المفرطين وانهم لأكياس أقوياء ومع الظالمين والخاطئين وانهم لأبرار برآء الا انهم لايستكثرون له الكثير ولا يرضون له بالقليل ولا يدلون عليه بالأعمال هم حيث مالقيتهم مهتمون مشفقون وجلون خائفون * خرجه أبو نعيم وغيره * وخرج الامام أحمد والترمذى من حديث أبى امامة عن النبى ﷺ « قال الحياء والعى شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق » وحسنه الترمذى . وخرجه الحاكم وصححه (١) * وخرج ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال « البيان من الله والعي من الشيطان وليس البيان بكثرة الكلام ولكن البيان الفصل فى الحق وليس العي قلة الكلام ولكن من سفه الحق » . وفى مراسيل محمد بن كعب القرظي عن النبى ﷺ قال « ثلاث ينقص بهن العبد فى الدنيا ويزداد بهن فى الآخرة ماهو أعظم من ذلك . الرحم والحياء وعى اللسان » * قال عون بن عبد الله ثلاث من الايمان الحياء والعفاف والعي عى اللسان لا عى القلب ولا عى العمل وهن

(١) رواه في مستدركه عن أبى امامة الباهلى وقال في آخره هذا حديث صحيح على شرط الشيخين . والعى قال صاحب مجمع البحار هو التحير في الكلام وأراد به ما كان بسبب التأمل في المقال والتحرز عن الوبال لا لخلل في اللسان: والبذاء بالمد الفحش في القول . والبيان المذموم تقدم الكلام عليه فراجعه

مما يزددن فى الآخرة وينقصن فى الدنيا وما يزددن فى الآخرة أكبر مما ينقصن من الدنيا * وروى هذا مرفوعا من وجه ضعيف *

وقال بعض السلف ان كان الرجل ليجلس الى القوم فيرون ان به عيا وما به من عي انه لفقيه مسلم : فمن عرف قدر السلف عرف ان سكوتهم عما سكتوا عنه من ضروب الكلام وكثرة الجدال والخصام والزيادة فى البيان على مقدار الحاجة لم يكن عيا ولا جهلا ولا قصوراً وانما كان ورعا وخشية لله واشتغالا عما لا ينفع بما ينفع . وسواء فى ذلك كلامهم فى أصول الدين وفروعه . وفى تفسير القرآن والحديث . وفى الزهد والرقائق . والحكم والمواعظ . وغير ذلك مما تكلموا فيه فمن سلك سبيلهم فقد اهتدى ومن سلك غير سبيلهم ودخل فى كثرة السؤال والبحث والجدال والقيل والقال . فان اعترف لهم بالفضل . وعلى نفسه بالنقص كان حاله قريباً * وقد قال اياس بن معاوية ما من أحد لا يعرف عيب نفسه الا وهو أحمق قيل له فما عيبك قال كثرة الكلام * وان ادعى لنفسه الفضل ولمن سبقه النقص والجهل فقد ضل ضلالا مبيناً وخسر خسراناً عظيما *

وفى الجملة ففى هذه الازمان الفاسدة إما أن يرضى الانسان لنفسه أن يكون عالماً عند الله أو لا يرضى الا بأن يكون عند أهل الزمان عالماً . فان رضى بالأول فليكتف بعلم الله فيه . ومن كان بينه وبين الله معرفة اكتفى بمعرفة الله اياه : ومن لم يرض الا بأن يكون عالماً عند الناس دخل فى قوله صلى الله عليه وسلم « من طلب العلم ليباهي

به العلماء أو يمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس اليه فليتبوأ مقعده من النار » *

قال وهيب بن الورد رب عالم يقول له الناس عالم وهو معدود عند الله من الجاهلين * وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ « ان أول من تسعر به النار ثلاثة أحدهم من قرأ القرآن وتعلم العلم ليقال هو قارىء وهو عالم ويقال له قد قيل ذلك ثم أمر به فيسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » فان لم تقنع نفسه بذلك حتى تصل الى درجة الحكم بين الناس حيث كان أهل الزمان لا يعظمون من لم يكن كذلك ولا يلتفتون اليه فقد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير وانتقل من درجة العلماء الى درجة الظلمة *

ولهذا قال بعض السلف لما أريد على القضاء فاباه انما تعلمت العلم لأحشر به مع الانبياء لا مع الملوك فان العلماء يحشرون مع الانبياء والقضاة يحشرون مع الملوك * ولا بد للمؤمن من صبر قليل حتى يصل به الى راحة طويلة فان جزع ولم يصبر فهو كما قال ابن المبارك * من صبر فما أقل ما يصبر ومن جزع فما أقل ما يتمتع : وكان الامام الشافعي رحمه الله ينشد :

يا نفس ما هى الا صبر أيام ... كأن مدتها أضغاث أحلام
يا نفس جوزى عن الدنيا مبادرة ... وخل عنها فان العيش قدامى

فنسأل الله تعالى علماً نافعاً ونعوذ به من علم لا ينفع . ومن قلب لا يخشع . ومن نفس لا تشبع : ومن دعاء لا يسمع : اللهم انا نعوذ

بك من هؤلاء الأربع الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين *

﴿ فصل ﴾ ليتدبر ما ذم الله به أهل الكتاب من قسوة القلوب بعد ايتائهم الكتاب ومشاهدتهم الآيات كاحياء القتيل المضروب ببعض البقرة . ثم نهينا عن التشبه بهم في ذلك . فقيل لنا (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)[1] وبين في موضع آخر سبب قسوة قلوبهم .

(١) قال ابن كثير هذه الآية نزلت في المؤمنين على ما روي عن ابن عباس أنه قال ان الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن . قال الزجاج نزلت في طائفة من المؤمنين حثوا على الرقة والخشوع وروي مسلم والنسائي وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال ما كان بين اسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية الا أربع سنين. وأوضح من هذا ما رواه البزار في مسنده فذكره فقال سفيان الثوري عن المسعودي عن القاسم قال مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ملة فقالوا حدثنا يارسول الله فأنزل الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) قال ثم ملوا ملة فقالوا حدثنا يارسول الله فأنزل الله تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع) الآية أى أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم وتلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتطيعه ويورثهم الذكر خشوعا ورقة (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم)* نهي الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصاري لما تطاول عليهم الامد أي الزمان بينهم وبين أنبيائهم بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنا قليلا ونبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا على الآراء المختلفة والاقوال المؤتفكة وقلدوا الرجال في دين الله

فقال سبحانه (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) فاخبر ان قسوة قلوبهم كان عقوبة لهم على نقضهم ميثاق الله وهو مخالفتهم لأمره وارتكابهم لنهيه بعد أن أخذ عليهم مواثيق الله وعهوده ان لايفعلوا ذلك * ثم قال تعالى (يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به)*

فذكر أن قسوة قلوبهم أوجبت لهم خصلتين مذمومتين * احداهما تحريف الكلم من بعد مواضعه * والثانية نسيانهم حظاً مما

واتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد وكثير منهم فاسقون أي في الاعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة كما قال تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به) اى فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه وتركوا الاعمال التي امروا بها وارتكبوا مانهوا عنه . ولهذا نهى الله المؤمنين ان يتشبهوا بهم في شيء من الامور الاصلية والفرعية *

ومن احس بقسوة في قلبه وجمود في فهمه وملل في جسمه فليهرع الى ذكر الله عز وجل وتلاوة كتابه والتفكر في معنى احاديث نبيه صلى الله عليه وسلم. يرجع اليه حاله ويلين له قلبه وتنقاد اليه نفسه كما اشار تعالى عقب الآية المتقدمة (اعلموا أن الله يحي الارض بعد موتها) قال ابن كثير فيه اشارة الى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدى الحيارى بعد ضلتها ويفرج الكروب بعد شدتها فكما يحي الارض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ويولج فيها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل اليها الواصل فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال . والمضل لمن أراد بعد الكمال الذى هو لما يشاء فعال . وهو الحكيم العدل الفعال اللطيف الخبير الكبير المتعال *

ذكروا به . والمراد تركهم واهمالهم نصيباً مما ذكروا به من الحكمة . والموعظة الحسنة . فنسوا ذلك وتركوا العمل به وأهملوه*

وهذان الأمران موجودان فى الذين فسدوا من علمائنا لمشابهتهم لأهل الكتاب : أحدهما تحريف فان من تفقه لغير العمل يقسو قلبه فلا يشتغل بالعمل بل بتحريف الكلم وصرف ألفاظ الكتاب والسنة عن مواضعها . والتلطف فى ذلك بأنواع الحيل اللطيفة من حملها على مجازات اللغة المستبعدة ونحو ذلك . والطعن فى ألفاظ السنن حيث لم يمكنهم الطعن فى ألفاظ الكتاب . ويذمون من تمسك بالنصوص وأجراها على مايفهم منها ويسمونه جاهلا أو حسوداً*

وهذا يوجد فى المتكلمين فى أصول الديانات وفى فقهاء الرأى . وفى صوفية الفلاسفة والمتكلمين * والثانى نسيان حظ مما ذكروا به من العلم النافع فلا تتعظ قلوبهم بل يذمون من تعلم ما يبكيه ويرق به قلبه ويسمونه قاصاً *

ونقل أهل الرأى فى كتبهم عن بعض شيوخهم ان ثمرات العلوم تدل على شرفها * فمن اشتغل بالتفسير فغايته أن يقص على الناس ويذكرهم * ومن اشتغل برأيهم وعلمهم فانه يفتى ويقضى ويحكم ويدرس وهؤلاء لهم نصيب من الذين (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون) والحامل لهم على هذا شدة محبتهم للدنيا وعلوها ولو انهم زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة ونصحوا أنفسهم وعباد الله لتمسكوا بما أنزل الله على رسوله . وألزموا الناس بذلك . فكان الناس حينئذ أكثرهم لا يخرجون عن التقوى فكان يكفيهم

ما فى نصوص الكتاب والسنة ومن خرج منهم عنهما كان قليلا . فكان الله يقيض من يفهم من معانى النصوص ما يرد به الخارج عنها الى الرجوع اليها ويستغنى بذلك عما ولدوه من الفروع الباطنة . والحيل المحرمة التى بسببها فتحت أبواب الرياء وغيره من المحرمات واستحلت محارم الله بأدنى الحيل كما فعل أهل الكتاب (وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً الى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل *

﴿ تم والحمد لله ﴾

فهرس كتاب فضل علم السلف على الخلف